بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما ينبغى لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه ، لا نبغى غيره رباً ، ولا نتخذ غيره ولياً ، ولا نبتغى غيره حَكَماً ، ولا نشرك به ولا معه أحداً ولا شيئاً ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

وأزكى صلوات الله وتسليماته على سيدنا وإمامنا ، وأُسوتنا وحبيبنا محمد ، الذى كانت صلاته ونُسُكه ومحياه ومماته لله رب العالمين ، لا شريك له ، كان كله لله ، إذا تكلم فللَّه ، وإذا صمت فللَّه ، وإذا غضب فللَّه ، وإذا رضى فللَّه ، وإذا أحب فللَّه ، وإذا أبغض فللَّه ، إذا أعطى أو منع أو سالم أو حارب فللَّه ، ولا شيء غير الله ، وقد علَّمنا أن ندعو الله فنقول : « اللَّهُمَّ إنَّا نعوذ بك أن نُشرك بك شيئاً نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه .

ورضى الله عن أصحابه ، الذين أخلصوا دينهم لله ، وأخلصهم الله لدينه ، فهاجروا لله ، وآووا ونصروا لله ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وكان الله ورسوله والجهاد فى سبيله أحب إليهم من آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم وأموال اقترفوها ، وتجارة يخشون كسادها ، ومساكن وأوطان يرضونها . . ورضى الله عمن سار على دربهم إلى يوم الدين .

أما بعد . .

فهذه الصفحات تتحدث - أخى القارئ - عن شُعْبة عظيمة من شُعَب الإيمان ، وعن مقام رفيع من مقامات الربَّانيين ، هو مقام « التوكل على الله » تعالى شأنه ، الذى حثَّ عليه القرآن الكريم بأساليب شتَّى ، وصور متنوعة ، وكذلك السُنَّة النبوية المشرْفة . وكان رسول الله ﷺ نموذجاً للمؤمن « المتوكل » على ربه حق توكله ، كما وُصِف بذلك فى بعض كتب أهل الكتاب .

وهذه الشعبة ، أو هذا المقام أو الخُلُق الربَّانى ، من المقامات التى دخل فيها خلط وخبط ، وسوء فهم عريض ، حتى التبس التوكل بالتواكل واطراح الأسباب ، ورويت فى ذلك حكايات عن بعض الصوفية ، فيها مبالغات تخرج عن منهج الوَسَطية التى جاء بها الإسلام ، كما تخرج عن نظام السنن التى أقام الله عليها هذا الخَلْق ، وربطها بشبكة الأسباب والمسببات .

ونحن على منهجنا الذى التزمناه لا نحيد عنه ، وهو الاستمساك بما جاء فى القرآن وصحيح السُّنَّة ، ففيهما النجاة من كل هلكة ، والسلامة من كل انحراف ، والاهتداء إلى ما يحب الله ويرضى ؛ ففيهما الحياة والنور كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ (١) .

أرجو أن تجد أخى القارئ فى هذه الصحائف ما يوضح لك الغاية ، وما يضئ لك السبيل ، ويساعدك على أن تثق بربك ، وتضع يدك فى يده ، متوكلاً عليه ، وكفى بالله وكيلاً . . وأن تجتهد فى رعاية الأسباب المشروعة ، كما أمرك الله ، وأن تدع النتائج إلى مسبب الأسباب ، ورب الأرباب ، فالكون كله بيده ، والمرجع إليه وحده : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

ونختم هذه التقدمة بما قاله نبى الله شعيب لقومه : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ، عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ (٣) .

الدوحة فى المحرَّم ١٤١٥ هـ - يونيو (حزيران) ١٩٩٤ م

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوى

* * *

---

(١) الشورى : ٥٢ - ٥٣ (٢) الأعراف : ٥٤ (٣) الأعراف : ٨٩